موسيقى ...

بقلم أرنولد دوكرشوف

نقلها عن الفرنسية موريس صقر

— ١ —

النثر يشرح ؛

والشعر يكشف ويبوح ؛

ووحدها الموسيقى تعطي كل ما تعبّر عنه ، وهي لا تعطينا الاحاسيس فحسب ، بل الحقيقة — الحقيقة التي تعجز الفنون الاخرى عن أدائها كاملة .

تقف الكلمة عند عتبة الحقيقة ، ومن هذه العتبة يبدأ سلطان الموسيقى . فالجواب الاخير ، الجواب الصحيح المفعم يأتي من نظام الانغام ، وما من لغة اخرى تستطيع ان تمنحنا اياه . نتلقى هذا الجواب في اعماقنا وكأنه اليقين الذي لا يوصف ، فيتضح كل شيء ليدخل في نطاق سر جديد . نحن ندرك عندئذ ، ولكن ادراكنا لا يتحدر من العقل ولا من الحدس بل من اندماج كياننا بالحقيقة . اذ ذاك نشعر بان معضلات كانت تُقض مضجعنا قد انحلت دون ان نعرف كيف تم ذلك .

لا أزال اذكر المرحلة التي كنت قد فقدت فيها الله ، وكنت أبحث عنه بألم ويأس دون ان ارى مخرجاً لشكيّ . ان مقطعاً واحداً من « باخ » اعاده الي بشكل ساطع قاطع الى درجة ان الشك لم ولن يتمكن من التسرب اليّ بعد هذا الجواب النهائي . ذلك لان الله لا ريب حاضر في الموسيقى ، وحاضر بكليته ، في حين ان باقي الفنون لا ترينا منه الا بعض الاشعاعات .

الموسيقى تشكل المرآة الكاملة التي تلقط النور وتعكسه كاملاً لانها تتضمن جميع الفنون وجميع انطلاقات الفكر والخيال: الهندسة والرياضيات، والتصوير والخطابة ، وهي التجريد الصافي الذي يبقى لذة .

« سواء حاولت ان اهلك ذاتي او ان انقذها فلا بدّ ان اجد بين الموسيقيين واحداً يستجيب لندائي . إن الموسيقى تعرض شتى القيود وشتى الاجازات ، لانها في الاساس دعوة الى الحياة . وبها وحدها يمكنني ان احقق كل ذاتي ، من غير ان اضيع ... »

انه ينطوي على تناقض عجيب هذا الحساب ، حساب الانغام ، الذي يحرك قلبنا ويغمر حواسنا بقدر ما هو دقيق ومضبوط ، بينما السر يبقى كاملاً اذ ان الدقة والضبط اللذين يمنحان الغبطة لا يبوحان بسرهما .

في الواقع ، نحن امام مسألة بديهية ، لذا يصعب التعبير عنها . الموسيقى هي البداهة بالذات ، انها الشيء الذي هو : كالهواء المباشر الذي يكتنفنا . إن من يستنشق الموسيقى يملكها ، ومن يحاول تحليلها يخسرها . واني لاراقب هؤلاء المستمعين السذج الذين لا يستطيعون الاصغاء الى العزف دون ان يقارنوا بين القطعة المعزوفة وترجمتها الموسيقية ، مثلهم مثل السائح الذي يهمه ان يعرف ما اذا كان المنظر الجميل المنفتح امامه ينطبق على ما كتب عنه في الدليل . وفي الظاهر ، يأتي العزف مطابقاً للترجمة ، اما في الحقيقة فلا يأتي شيء : لقد عرف المستمع كيف توقع الموسيقى ، ولكنه لم يشعر بالسحر المنسكب منها .

السحر : قد تكون هذه اللفظة غير ملائمة تماماً ، وقد تعني ان الموسيقى تدخلنا في عالم من الذهول العميق ، لذا من الانسب ان نستبدلها بلفظة « تدريب » ، تدريب للدخول الى قدس اقداس الهيكل . وكما ان هناك قطعاً موسيقية تدغدغنا وتخدرنا تخديراً ناعماً يحملنا على الرقاد ، فهناك قطع توقظنا من غفلتنا وتدفعنا الى اقصى حدود الوعي لتجعل منا كائنات شفافة ، مرهفة ، صافية ، وتزيل من حولنا الضباب والظلام .

في اعتقادي ان الموسيقى بقدرما تنزع الى الصفاء لتكون موسيقى وموسيقى فحسب ، تحررنا وتعتقنا حتى من الاحاسيس التي تعبر هي عنها ،

اذ ذاك لا نشعر الا بالفرح الذي يبعثه الكمال . عندما ينشد «بيتهوفن» الالم ، فهو يردنا الى ألمنا ويقيدنا به ، لانه لم يقطع الا نصف الطريق المؤدية الى الموسيقى الخالصة فبقي على مقربة من الادب والبوح والمشاركة ، في حين اننا لا نرى شيئاً من هذا عند « موزارت » . هنا الالم والحب والشوق واللذة والغيرة تتحول جميعها الى موسيقى ، ونحن بدورنا نتحول الى انغام خالصة عندما نلتهم هذه الموسيقى، اذ نتحرر من سائر الافكار والقيود والاحاسيس التي تربطنا بالعالم الخارجي وبانفسنا . ان « موزارت » يبوح لنا بكلمة السر ويعطينا «المفتاح» العجيب الذي يمكننا من تحويل الاحاسيس المضنكة ، الممزقة ، وحتى الالم ، الى متعة .

لعل لفظة « متعة » هي اصح المفردات التي ينبغي استعمالها عند الكلام عن الموسيقى لانها وحدها تعبر بوضوح وبلاغة خاليين من الاطناب عن شعورنا بالهيمنة والحرية والارتياح – كأن جميع تناقضاتنا قد انحلت – هذا الشعور المنبثق من تعانق الانغام المنسجمة . هي متعة تنطوي على انتصار لانها صادرة عن تغلبنا على القلق والهموم ، ولكن قليلة جداً هي القطع الموسيقية التي تصعد بنا الى درجة المتعة .

موزارت

– ٢ –

اعتقد ان كل واحد منا حاضر في الموسيقى . ان اعمق ما في كياننا من اسرار ومن عناصر وجودية ثابتة قد حصرها احد الموسيقيين الملهمين ، يوماً من الايام ، دون ان يدري ، في جملة موسيقية او لحن من الالحان .

يا لها من يقظة وياله من لقاء لا يوصفان: اجد نفسي واجدك عندما اصغي ، وها انا المس عند « شوبان » ما يبرر اخطاءك وضعفك . أجل، في اللحظة التي أصغيت فيها الى « البحر » ، ادركت انك ، بالرغم من مظاهرك المتقلبة ، لا تزالين كما كنت ، صامدة امينة .

قد نجد في روايات « دوستويفسكي » هذه البطلة او تلك « أغلايه » مثلاً – التي توحي لنا شيئاً مما ذكرت ، ولكننا نبقى هنا في مجال الشبه والنسبة .

اما الجواب الذي يحل جميع تناقضاتك ويزيل شكي ويكشف لنا عن الاخاء الذي يجمعنا فالموسيقى وحدها تعطينا اياه، ووحدها ترجعني الى نفسي اذا ما ضعت واصبحت لا اعرف من انا .

– ٣ –

يمكن تأليف « سيمفونية » غريبة من المواضيع الراقدة في اعماقي ، « سيمفونية » لن تخيب املي بشكل من الاشكال وتغدو كأنها قصة حياتي ، لا بل القصة الصحيحة الوحيدة لمجرى وجودي .

الكلام والسرد لا ينفذان الى جوهر الحقيقة . انا لو سردت بامانة كلية ما جرى لي ، لن اضع الا قصة ناقصة ، مشوهة . في حين انني لو انشدت ما يجول في كياني ... ولكن من يسمع نشيدي ؟ ان لغة النشيد هي أغمض من لغة الكلام ...

– ٤ –

سواء حاولت ان اهلك ذاتي او ان انقذها ، فلا بد ان اجد بين الموسيقيين واحداً يستجيب ندائي. فالموسيقى تعرض شتى القيود وشتى الاجازات، لانها في الاساس دعوة الى الحياة . أي فائدة ترجى من التمييز بين مختلف النداءات الموسيقية الخالصة ؟ وهل يصح ان نرفض « فاجنر » مثلاً باسم « باخ » او « موزارت » ؟

في الموسيقى وحدها يمكنني ان احقق كل ذاتي من غير ان اضيع ....

– ٥ –

ينبغي ان نتكلم عن « موزارت » بكل دقة وحذر ، فهو ليس موسيقياً ، بل هو الموسيقى ، ولذا لا نستطيع ان نحصره في الالفاظ . انه وجد للنشيد مهما كانت الظروف ،

وهو لم يهتم بالضجيج حوله ولا بالصعوبات المادية والاجتماعية التي اصطدم بها ، وكان لا يتأثر بالحزن ولا بالحب ولا باللذة او الشهرة كلما استسلم الى الموسيقى التي كانت له بمثابة التنفس. هل عاش حقاً؟ نعم ، ولكن على غير صعيد البشر ، فالاحداث الواقعة لم تكن لتؤثر فيه . كان يتحملها دون ان يدخل في نطاقها ، ولا ريب انه لم يكن يؤمن بحقيقتها . ان الفنان الحقيقي يقبل على الحياة كاقباله على خدعة تضلل الغير وتنجيه هو من حشريتهم . انه من عالم غير عالمهم ، لذا نراه حراً ومتجرداً الى اقصى الحدود .

كان « موزارت » منيعاً للغاية لانه دخل بكليته في العالم الذي خلقه ، هذا العالم الذي يسميه الغير خيالاً والذي يعتبره هو عين الحقيقة . عندما يتوجه « بيتهوفن » الينا وكأنه يطلب شهادتنا لتسجيل ما يشعر به فهو يخون : انه يترك وطنه ليعود الى وطننا ، ويترك لغته ليستعمل كلماتنا البشرية . بينما يبقى « موزارت » في وطنه حيث عرف الفردوس الارضي ، وما الفردوس الارضي هنا الا تحقيق الذات في النشيد الكامل .

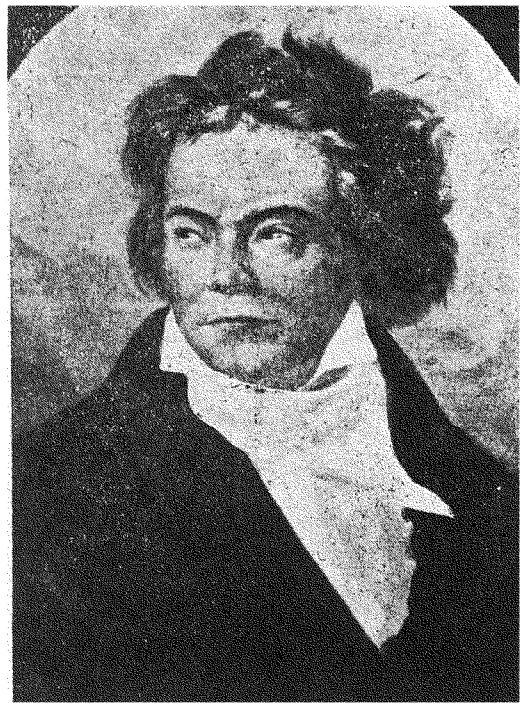

شوبان

لقد تحول « موزارت » الى ما خلق ، اي الى نشيد ، ولست ادري اذا كان هناك بين الفنانين من يجاريه في هذا المضمار . ان الفنانين يفتشون عن انفسهم عندما يقومون بعمل الخلق ، ولكنهم يلفظون النفس الاخير وهم غير مكتملين اذا ما بقي شيء في احشائهم لم يتجسد في مؤلفاتهم .

اندمج « موزارت » اندماجاً كلياً في مؤلفاته ومات لا على اثر مرض بل لانه عبر عن كل ما في احشائه . مات لانه استنفد جميع ما عنده ولم يبق في مقدوره ان يعبر عن شيء ، وكان لم يتجاوز بعد السادسة والثلاثين من العمر . لماذا التحسر عليه ؟ انه لم يمر في فترات العقم التي يعيشها الفنانون من وقت الى آخر والتي هي اصعب عليهم من الموت ، لانها موت واعٍ ، او نفي جبري من وطن الخلق والابداع .

لقد طالما اشاد الناس بنعومة «موزارت» ، وهذا خطأ ، والواقع ان الرجولة تتجلى في موسيقاه اكثر مما تتجلى في أية موسيقى اخرى . هنا لا نجد اي تردد ، ولا أية شكوى او حيرة ، لانه يكفي هذا الفنان ان يتحفز للتعبير حتى يجد اللغة الملائمة ويتحرر ... هو لا ينفذ الينا ليحرك فينا العواطف الراقدة ويدفعنا الى البوح ، بل ليدلنا على السبيل الوحيد الذي يؤدي بنا الى حل تناقضاتنا الداخلية والقضاء على نشوزنا المستعصي . هناك اذن عالم يتيسر لنا فيه ان ننسجم مع انفسنا ومع الآخرين ، وان نتغلب على اللوعة ووخز الضمير والفشل واليأس . اننا لم نفقد شيئاً بصورة نهائية ما دام بامكاننا ان نحول كل شيء الى موسيقى ...

-٦-

لنتصور ان الناس ، بدافع حاجة ملحة ، راحوا يعبرون عن ذاتهم بواسطة النشيد ، ترافقهم فرقة من الموسيقيين الماهرين ، ولنتصور ايضاً ان افراداً من هؤلاء الناس راحوا يرقصون خلال النشيد رقصاً دقيقاً محكماً ، فهم يعطون عندئذٍ عن الحياة صورة تبدو لنا مصطنعة ، لا معقولة ، في حين انها الصورة الصحيحة الوحيدة ، وهي تكون عريقة في الصحة بقدر ما تعتمد على الاسلوب والصيغة المرهفة ، هذه هي في الواقع «الاوبرا» ، او بالاحرى هكذا يجب ان تكون اذا ما وصلت الى الكمال . وما « الاوبرا » الخالصة سوى نجاح الموسيقى وتجسيدها تجسيداً تاماً . لقد وجد « موزارت » ليخلق في الاوبرا ، لانه وُلد موسيقياً وعاش ومات موسيقياً ولم يتحقق الا في الموسيقى . انه يلعب اللعبة الموسيقية باخلاص وصراحة ، فهو يقبل بالاصطلاحات ويصل الى الصيغة المرهفة . عندما نصغي اليه ندخل في عالم لا يمت باية

اعمق الدراسات الشعرية
في العدد القادم الممتاز

صلة الى عالمنا ، ندخل في عالم النشيد او الحياة التي يطهرها النشيد . كانت حياته « اوبرا » ، لانه احسها وعبر عنها بلغة الموسيقى .

— ٧ —

يمكننا ان نرد كل شيء الى قاعدة اساسية : يجب ان نلاشي ذاتنا لنصغي اكثر فاكثر . اذا اردنا ان نفهم قطعة صعبة المنال ، علينا ان نستسلم لها وان ندعها تنساب رويداً رويداً فينا ... ان الالمام بتقنية الموسيقى مفيد ولكنه غير ضروري ، وعلى كل حال ينبغي ان نتعداه الى ما هو الجوهر ، علينا خاصة ان نثق وان ننفتح وألا نخشى الا امراً واحداً : إضاعة المتعة التي يمنحها العزف . وليس المهم ان نعرف ما اذا كانت هذه المتعة من نوع رفيع او وضيع ، او حقير ، بل المهم ان نعرف ما اذا كانت متعة حقيقية ام لا . وهو امر يتعلق بنا في اغلب الاحيان ، اذ ان التمييز النوعي هو رهن بنوعيتنا نحن .

— ٨ —

من ذهب الى ابعد من الكلام ، لا يبقى له سوى الصمت والاشارة ، او الموسيقى التي هي صمت واشارة معاً . ان الخطأ الاساسي في بعض المجموعات الموسيقية هو انها تخون الصمت ، وذلك اما بتنظيم الضجيج واما بالتعبير عما يمكن ان تعبر عنه الكلمات . والموسيقى ليست هي الصمت تماماً ، بل المرحلة الاخيرة نحوه ، ولا يبقى بعدها سوى التأمل والانخطاف الجامد .

الموسيقى : هي الانسجام مع خفقات القلب وإيقاع البحار العميق وتقلبات الامواج وهدير الرياح في الشجر وصفاء السماء فوق الوادي ودوران الكواكب الثائرة وتدفق الساعات بلا انقطاع ولا شفقة . انها منظمة كالجسم البشري مع خلاياه والدم الجاري في العروق والرئتين الخافقتين والعضلات النافرة والاعصاب المرتعشة في الهيكل المنسّق . كنت في الماضي ، كلما سمعت معزوفة من « باخ » رأيت عمارة تنتصب امامي ، ولكن العمارة جامدة بينما هندسة الموسيقى تبيت خلجات

— البقية على الصفحة ٥٠ —

انا من يحبّ ...

•

انا من يحب الانجما ملء السماء تبسّما
نفذت الى سر الدجى وجلت حجاباً مظلما
لكنها في مقلتيك أحب منها في السما
ولو انها لم تجل لي سراً أحاور مبهما !

* * *

أنا من يحب النهر يغدق صافياً مترنما
يُرْوي الغليل ، ويلبس المرج الوشاح منمنما
ووجدت نهر هواك أحلى في الفؤاد وأكرما
ولو انه ما بلّ لي شفةً ولا نقع الظما !

* * *

أنا من يحب الورد خلْق الارض يبزغ برعما
ويطيب لي ان ألتقيه وان أشمّ وألثما
لكن وردك وهو من حسن الى الله انتمى
أشهى ، ولم أعرفه إلا سكرةً وتوهما
جلّ الذي خلق الورود بوجنتيك وحرّما
وأراد ان اشتاق دنيا المستحيل وأحلما !

رئيف خوري